# شكوى القبور

مر مَلَاك في المقبرة الساكنة، وكان حزينًا حزنَ مَن يرى الموت قريبًا، وكان على الأرض ليلٌ وربيعٌ، وأريجُ أشجار الأزدرخت يتدفق منتشرًا فوق المقبرة.

فبكت القبور، وتألمت نفس المسجونين فيها؛ لأنها لم تكن مستريحة، بل كانت تحلم في نومها بآمال بعيدة.

فقال المَلَاك: ناموا، فإن القبور أولى لكم، ففيها سكون وراحة، لماذا تشكون؟ ألعل حياتكم كانت بلا مصائب ومتاعب؟ ألم تمر كلها كالخيال؟ هو ذا كثير من الأحياء يتنهدون ويقولون: آه ما أحلى الموت! فناموا ولا تذكروا الماضي، ولا تَأْسَفوا عليه.

فأجابت الأصوات من القبور باكيةً: على الأرض ربيع فلا نقدر أن ننام.

وقال واحد منها للملاك: لقد وصل إليَّ أرج الأزهار مخترقًا الثَّرَى، وأيقظني وأذكرني تلك التي كنت أحبها، فاسمح لي أن أنهض وأفتش عنها تحت ظل شجرة الياسمين التي كنا نجلس تحتها سعيدَيْن، لعلي أرى شفتَيْها وعينَيْها التي كنت أقبلها سابقًا.

قد كنت أظن أني سألتقي بها بعد الموت، ولكن قد خاب ظني، وها أنا وحيد كما تراني في قبري، ولا أستطيع المكوث في هذه الوحدة، فاسمح لي بالقيام.

فأجاب الملاك: إن التي أحببتها قد ماتت، وشجرة الياسمين التي تحتها السعادة قد يبست من أمد،[1] وقد رأيت بعيني آخر زهرة منها تسقط إلى الأرض ذاويةً،[2] فَنَمْ.

ثم وطأ القبر بقدمه، فخرج منه صوت شبيه بالأنين وصمت.

---

[1] الأمد: الأجل.

[2] ذاوية: أي ذابلة.

فبكى قبر آخَر وقال: أسمع حفيف الأشجار وخرير المياه، فلا أستطيع النوم، قد أخذت حينما كنت حيًّا في تأليف ترنيمة حب جميلة، ولكنني مت قبل أن أكملها، وها أنا الآن يُخَيَّل لي أني أسمع حفيف الأوراق ألحانًا خفية مختلطة منها، فاسمح لي أن أنهض لأكملها، ومتى أكملتها سأقدِّمها للورى، فترنمها الأم الفتية على مهد[٣] طفلها، وتنشدها الغادة العذراء في حضور خطيبها.

فقال له الملاك: إن ألحان ترنيمك قد ذهبت دون أن يرجع لها صدًى، فنسيها الورى[٤] وليست إلا الأشجار ذاكرة إياها، ولذلك تسمعها تعيدها فوق قبرك بحفيف لطيف لكي تنام على ألحانها، وخطا الملاك ووطئ القبر بقدمه[٥] فتنهد الصوت الباكي وصمت.

فبكى قبر ثالث وقال: إن القبر منير، فلا أستطيع النوم بسببه؛ لأني كنت عندما أرى النور في حياتي أندفع بكليتي إليه لجماله، وقد سمَّى الناس هذا النور بأسماء عديدة، غير أني كنت أحبه في كل هيئاته ومظاهره غير مكترث بأسمائه.

لما كنت طفلًا كانت أمي تقول لي: إني بعد الموت سوف أُعاين[٦] ذلك النور إلى الأبد، وكنت أصدقها، ولكن هو ذا أنا في القبر تحيط بي ظلمة مُدْلَهِمَّة[٧] ولست أرى النور، فاسمح لي بالنهوض لعلي أراه.

فصمت الملاك، ولم يُجِب ببنت شَفَة.

فقال الصوت: أَجِبْني أيها الملاك، لعل النور قد انطفأ من على وجه الأرض، أَجِبْني لعلي أنام.

فلم يُجِب الملاك ولم يطأ الضريح بقدمه، ولم يُعَزِّ الباكي في قبره، بل وقف حائرًا وأطرق حزينًا؛ لأن كلمات الملحود الباكي وقع لها صدًى في قلبه، فشعر كشعوره، ولكنه لم يكن قادرًا على إنهاضه من القبر.

---

[٣] مهد الطفل: سريره.

[٤] الورى: الخلق.

[٥] وطئ القبر بقدمه: أي داسه.

[٦] عاينه: رآه بعينه.

[٧] المُدْلَهِمَّة: الشديدة السواد.